كل هذا يعني أن الإديولوجيا السياسية لَيْسَتْ لا وَهْماً مطلقاً، ولا حقيقةً مطلقة، لأنها من جانب فعاليتها في معرفة الواقع وملامسته عن قرب، وتقديم الاقتراحات النظرية والعملية للتعامل مع الواقع، كثيراً ما تُبرهن عن صلاحيتها في تفسير معطيات مادية محسوسة[12].

وهنا نرى أن النظر إلى الإديولوجيا السياسية على أنها وهمٌ فقط، يَبْعُدُ بنا عن التحليل الموضوعي لدورها في الواقع، لذلك لا يمكن النظر إلى إديولوجيا الأحزاب مثلاً بأنها جميعاً زائفة. **والواقع أن نسبة الزيف والحقيقة في كل إديولوجيا تتغير من إديولوجيا إلى إديولوجيا وفق الشروط الموضوعية التي تُحَدِّدُ كل واحدة منها.**

في خضم صراع الإديولوجيات في الواقع فإن ما يعتبر الدرع الواقي لكل منها هو تَحَصُّن كل واحدة منها داخل (قدر كبير أو قليل) من التعميم والتمويه. ويبقى السؤال الحرج دائما هو كما وضعه ياكوب بايرون «كيف يتسنى لنا أن نُمَيِّزَ بين الوجدان الحقيقي والوجدان الإديولوجي الزائف»[13].

ولقد أشرنا في السابق إلى أن دارس الإديولوجيا إذا ما خاض في هذا الموضوع سوف يَتَقَلَّدُ إديولوجيتَهُ الخاصة ليدخل هو أيضاً في حلبة الصراع، ومع ذلك فمن حقنا أن نطرح السؤال على الأقل لأنه شديد الأهمية بالنسبة لعلاقة الإديولوجيا بالأدب، كما أنه شديد الأهمية من الناحية المعرفية. فالوقوف عند وصف الإديولوجيات يؤدي إلى النظر إليها على قدم المساواة وهو ما لا يقدم كبير فائدة بالنسبة للمعرفة، كما أن النظر إليها جميعاً من خلال واحدة من بينها يُسْقِطُ من جديد في الوهم، فهل هناك إذاً إمكانية لدى الدارس نفسه تجعله لا يبقى عند حدود الوصف ولا يسقط من جديد في الإديولوجيا؟ هذا هو التساؤل الحرج، وحتى إذا نَظَرَ الدارسُ إلى جميع الإديولوجيات، يفرز فيها بين الزائف والصحيح فإن هذا يفترض أنه سيمتلك طاقة معرفية تتجاوز جميع الإديولوجيات. ما هي طبيعة هذه المعرفة؟ هل هي حدس معرفي؟ هل هي تركيب معرفي تشارك فيه جميع الإديولوجيات المدروسة نفسها؟.

مثل هذه الأسئلة يثيرها تأمل ياكوب بايرون نفسه في الإديولوجيات حين يقول:

«إن النزعة الكلية لدى الإديولوجيات، وهي تلك النزعة المؤدية إلى تلك التخطيطات التي ترفع صرحاً هندسياً من الأفكار، وتتصف بطابع المنظومات المنسقة، تطرح علينا

---

(12) جي بويللي، مرجع مذكور، ص 80، عمود 1.

(13) المرجع نفسه، ص 170، عمود 2. وبإخفاء الإديولوجيا لمقاصدها الحقيقية أحياناً، فهي تُبدي نفسها لمجموع الناس وكأنها تهمهم جميعاً. انظر:
Pierre Ansart: **Les Idiologies Politiques.** P U.F. P. 109.